القسم الثاني
(١)

مقدمـــة رودينسون

تتناول في هذا القسم كتاب محمد لمؤلفه مكسيم رودينسون بالدراسة والتحليل . وتتركز خطتنا هنا في ترجمة آراء الكاتب إلى اللغة العربية كما هي دون تدخل منا في النص ثم مناقشتها بحسب الأصول المنهجية ، واعتمادًا على الحقائق التاريخية المأخوذة من مصادرها الأصلية المعتمدة من جمهور علماء المسلمين ، والتي لم يستطع أن يتعامل معها رودينسون أو يدور في فلكها مما جعل كتابه أشبه بقصة خيالية مبتورة ومبتسرة. وكما أشرنا إليه من قبل فإننا سنتتبع موضوعات الكتاب بحسب ترتيبها الذي اختاره رودينسون .

تدور مقدمة الكتاب بإيجاز حول حالة العالم قبل الإسلام . فقد صور الكاتب العالم وبالذات فارس والروم ، أو الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية تصويرًا أدبيًا بليغًا مركزًا على وضع الإمبراطورية الرومانية قبل محمد صلى الله عليه وسلم وأثناء حياته ، وعلى انتشار المسيحية في أرجاء المعمورة وعلى ظهور الكنائس والأديرة في كل مكان. ويرجع الكاتب خطأ قوة الدولة الرومانية وعظمتها إلى شدة تمسكها بدين المسيح ، ويقول أنها بفضل تمسكها بهذه الديانة قد تغلبت على كل ديانات العالم القديم إلى درجة أن تاجرًا مصريًا كان قد انتهى به الحال إلى أن أصبح راهبًا نصرانيًا في آخر عمره ، وقد عبر هذا الرجل عن دهشته العظيمة من قوة الإمبراطورية الرومانية وأبهتها حتى أنه قال: «إن مملكة اسرب يسوع المسيح قد علت على كل الممالك ، وإني أراها وهي في وضعها هذا قد فاقت كل قوة عرفها العالم ، وأنها سوف تظل هكذا لا تقهر ولا تسقط أبدًا... » .

ومضى الكاتب في وصف الإمبراطورية الرومانية وعظمتها ، وانتشار المسيحية بواسطتها . حتى ختم هذا الجزء من مقدمته بكلام اقتبسه من وصف للراهبة أثيريا التي تجولت في المنطقة التي يطلق عليها الآن الشرق الأوسط ، والتي كانت واقعة تحت نفوذ الإمبراطورية الرومانية قبل أن يعتنق أهلها الإسلام . تقول الراهبة : « إن أرض

السراسين [1](يعني المسلمين) هذا الشعب البربري المزعج الذي تعامل معه ولا بد بعض رهباننا بحكم الواقع ... »(ص٩) . ثم ينقل نفس الكاتب عن بروكوبيس أن جستين قد بنى كنيسة لأم المسيح عليهما السلام ، وقلعة ضخمة محصنة بعدة معسكرات أقيمت حولها بحيث لا يستطيع السراسين (المسلمون) أن يفكروا في بناء قاعدة في هذا المكان يمكن أن ينطلقوا منها لغزو البلاد ، وذلك لأن هذه المنطقة لم تكن في هذا الوقت آهلة بالسكان (ص ٩-١٠) إن رودينسون ينهي كلامه في هذا الجزء من مقدمته بهذه الطريقة متعمدا إثارة الرأي العام الغربي النصراني والعالمي ضد المسلمين ، الذين يصفهم بالوبرية والعنف والميل إلى التخريب والتدمير ، وبأنهم لا أيمان لهم ولا عهد ولا ذمة . وهو يحمل المسلمين مسئولية سقوط الإمبراطورية الرومانية والاستيلاء على أراضيها بالقوة ، واستلاب آثارها وذخائرها وثرواتها بالإكراه . ويزعم رودينسون أن المسلمين هم الذين اغتالوا الديانة النصرانية وأعاقوا مسيرتها ، وبالتالي فعلى الغرب النصراني أن يسترد منهم كل ما أخذوه بالقوة . هذه هي فحوى كلام الكاتب الفرنسي الماركسي إن لم تكن هي نص عباراته بالتحديد .

إنه ينفخ في رماد وينبش عن رفات في ظلمات التاريخ ليشعل نار العداوة ويؤجج أوار الصدام والنزاع بين الشعوب الإسلامية وبين الشعوب النصرانية وريثة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، كما كان يطلق عليها ؛ ويتجاهل رودينسون العوامل الطبيعية والبشرية الذاتية لسقوط الإمبراطوريات والدول والتي كتبت فيها مجلدات عديدة. إن غلبة الظلم والتعسف ، وشيوع الفساد والانحلال ، والاستبداد وقهر الشعوب بالقوة ، والإرهاب والتطرف ، والجمود الفكري والنزعة العنصرية ، والاعتماد على القوة وحدها في سياسة الشعوب والتي كانت كلها سائدة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية هي أكبر الأسباب التي عجلت بسقوطها ، سواء في وطنها الأم ، أو في مستعمراتها . لقد سقطت هذه الإمبراطورية بشكل مأساوي مثير للعجب والتأمل وليس لسقوطها تأويل مقبول أو تفسير سائغ غير ما ذكرناه ، وأنه كان لذلك عقابًا من الله تعالى ، وتمهيدا لإصلاح العالم مع ظهور دولة الإسلام وانتشار نور الله والسلام في الآفاق .

لقد تجاهل رودينسون عداوته التاريخية والتقليدية كيهودي للمسيحية ،

---

(١) كلمة سراسين Saracens هي الكلمة الإنجليزية الحديثة التي أطلقت على المسلمين ، وهي مأخوذة من الكلمة الإغريقية Saraceni والكلمة اللاتينية Sarakenoi.

وللإمبراطورية الرومانية التي كانت تمثلها ، عندما راح يثني عليها ويمجدها من حيث يحط على الإسلام والمسلمين ، ويصور النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أشبه بمجرمي الحرب ، وبالنازي .

وتجاهل رودينسون كذلك ماركسيته المعادية للأديان والتي تعتبر الدين أفيون الشعوب وسر تأخرها عندما مجد الديانة المسيحية واعتبرها هي سر بقاء ورقي الإمبراطورية الرومانية .

هذا مع أن الغرب لم يتقدم ، ولم يتحضر إلا بعد أن أدار ظهره للنصرانية ، وفصل الدين عن الدولة ، وحدد للدين ولرجال الدين منطقة محدودة لا يسمح لهم بتعديها أو تجاوزها ، إن رودينسون يدافع من صهيونيته مستعد دائما أن يقول أي شيء يراه ضارًا بالإسلام والمسلمين، دون مراعاة لمبدأ أو منطق أو حقيقة تاريخية. وهذا ما فعله هذا الكاتب العنصري في كتابه عن أطهر الطاهرين ورحمة الله للعالمين محمد صلى الله عليه وسلم الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن العبودية إلى الحرية، ومن الاستبداد إلى العدالة والإنصاف.

وما أشد حاجة العالم كله ، غربه وشرقه إلى الانتفاع من أخلاق هذا النبي العظيم والتشريعات التي جاء بها من عند الله ، آمن به من آمن وكفر به من كفر . إن أحدًا من علماء الغرب أو الشرق المنصفين لا ينكر أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أعظم شخصية أثرت ولا تزال تؤثر في تاريخ الإنسانية وإلى يوم الدين .